عوامل النهضة العربية الحديثة

– ما سبق دليل على إحساس للمثقفين آنذاك بالخراب الذي حل بالحياة الأدبية والفكرية بالعالم العربي والإسلامي في فترة ما قبل النهضة.

– الهوة كانت عميقة بين عالم (عربي) غابت فيه كل مظاهر الحياة والعقلانية، واكتسب كل مقومات الجمود والتخلف وثبت عليها، وبين عالم (أوروبي) كان يزدحم بالفتوحات العلمية والتوجهات الجديدة، وروح استعمارية ليبرالية قوية.

– إذن لن تنجح المحاولات (الإصلاحية) الخافتة في كسر الجهل والوهم، بل ينبغي أن تحدث زلازل عنيفة حتى يتمكن الناس من تَمثُّل الحقائق الخافية عنهم، فالنهضة العربية الحديثة ستكون ثمرة **صدمة قوية**، وعوامل فعالة، تعيد العرب إلى التاريخ.

أ– الاحتكاك بالغرب (الوافد) [الغرب يأتي إلى الشرق]:

– الصدمة هي **حملة نابليون بونابرت** على مصر(1798). ويَعُد دارسون كثُر تاريخها مؤشرا على الانتباه لابتداء النهضة العربية الحديثة. هي رجة عنيفة حضر الغرب فيها بكامل قوته، مدعوما بثمار النهضة والتنوير، لإخضاع الشرق واحتلاله.

– **هناك فائدة مباشرة**، تعود لإستراتيجية نابليون ومكونات الحملة نفسها، إذ رافقه علماء في الرياضيات والهندسة والطب.. وأنشأوا في القاهرة مدرستين ومطبعتين (فرنسية وعربية) ومرصدا ومسرحا ومتحفا ومكتبة للمطالعة. إنها أول مرة تقع فيها يد الشرقي على نتاج العصر الحديث، ومن هنا سيتزايد **اهتمام الشرق بالغرب، ويتزايد اهتمام الغرب بالشرق.**

– **الفائدة الأهم** مصدرها دهشة الشرقيين وهم يرون منتجات الحضارة الحديثة. اهتز الشرق وانبهر بالعلم الجديد المتطور. لقد دق ناقوس الخطر، فارتبطت الهزيمة والمذابح بالعلم والتفوق التكنولوجي، ووضعت إلى جنب الواقع المتهالك للمصريين.

– ومن مظاهر الاحتكاك أيضا: **الإرساليات التبشيرية والاستشراق**. والتبشير ليس جديدا على العالم العربي، فقد رافق للحملات الصليبية؛ لأنه منبثق أصلا من منظورها العقائدي والسياسي والتنظيمي، **لكنه أخذ منذ القرن 17 صورة بعثات أو إرساليات منظمة؛** كالبعثة الأمريكية التي أنشأت أقدم مدرسة إرسالية في لبنان (1834)، وتأسست (1847) (الجمعية السورية) لترقية الفنون والعلوم، وأصدرت (1852) مجلة باسمها يحررها بطرس البستاني. وأسس الآباء اليسوعيون بدعم مالي فرنسي الكلية اليسوعية. وأسس لافيجري أسقف الجزائر جمعية الآباء البيض (1868).

– لكن **الاستشراق** Orientalisme أبرز صور الوافد، **فهو اهتمام بل تحدّ منهجي وعقلي من لون مغاير، إنه قدرة الغرب على التحكم في لغة وثقافة كنا نعتقد أننا وحدنا نعرفها ونفهمها**. وهذا الاهتمام الغربي بالفكر العربي والإسلامي قديم فقد كان أحد عوامل النهضة الأوربية، وتولت الكنيسة ترجمة كتب عربية (في العلوم الطبيعية) إلى اللاتينية، وأنشأ اليسوعيون مدرسة لتعليم اللغة والأدب العربي في روما، وأنشأوا أول مطبعة بالحروف العربية(1514)، واستمرت الظاهرة طوال ق 17.

كان انطلاق الحركة بقوة في القرنين 18 و19 خاصة (كارليل 1804– يوسف هوايت 1814– دومبي 1810) سيما بتأسيس مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس (1795) بفضل المستشرق الفرنسي البارون سيلفستر دي ساسي Sylvestre de sacy فكثرت الجمعيات الاستشراقية، في روسيا وباريس وبريطانيا إيرلندا.. وأصدروا مجلات علمية عديدة، ومن أشهرهم: رينو– ديسلان– وستنفيلد– دوزي – مرجيليوث– نولدكه– غولدزيهر– جويدي– بروكلمان.. ولا يزال أحفادهم يعملون. **ورغم تعصب بعضهم وتحلّله من الموضوعية، وارتباط جلّهم بالاستعمار، إلا أنهم قدموا خدمة هامة للعرب** في مطلع النهضة ومن وجوهها ما يلي:

– **تحقيق وطبع بعض أمهات الكتب العربية القديمة** في اللغة والأدب والتاريخ والدين، اعتمادا على المخطوطات الأصلية، والتنبيه إلى أماكن وجود المخطوطات العربية في مكتبات العالم.

– **وضع معاجم** (عربية–أجنبية).. ودائرة المعارف الإسلامية، ومعجم مفردات القرآن– ومعجم الحديث..

– **ترجمتهم للكتب العربية** إلى لغاتهم أسهم في تعريف الغرب بثقافتنا، ترجموا دواوين شعرية ومعاجم وكتب التاريخ والدين.

– **منهجهم (الحديث) في التأليف وتنظيم الفصول**، من خلال الكتب والمجلات التي أصدروها، ساعد على تطور منهجية البحث والكتابة لدى العرب، فخرجوا من دائرة الحواشي والمتون.

ب – البحث واستيراد المعرفة (الانطلاق نحو الغرب) [الشرق يذهب إلى الغرب]:

الفضول والدهشة التي خلّفتها الحملة الفرنسية واستعمار الجزائر.. أهم الحوافز على ضرورة استكشاف الغرب. لم تكن اللمحة أو السيطرة العسكرية كافية لإدراك وضع الغرب، بل ينبغي الاقتراب منه، وهو ما خطط له وطبقه محمد علي في مصر(1805–1848)، وأحمد باي حاكم تونس. فكانت **الرحلة إلى الغرب** أول نموذج حي لهذا الاستكشاف.

1– **رحلة رفاعة رافع الطهطاوي** (1801–1837) إلى فرنسا في بعثة علمية رسمية (1826–1831) تعد بحق أهمّ أثر أدبي وفكري ترجم التفاعل الأولي بين الشرق والغرب.

– لقد ركز رفاعة على **العلم** وتطوره في الغرب، بل كتب الرحلة لحث " ديار الإسلام على البحث عن العلوم البَرّانية والفنون والصنائع [يقول] فإن كمال ذلك ببلاد الإفرنج أمر ثابت وشائع، والحق أحق أن يتبع. ولعمر الله إنني مدة إقامتي بهذه البلاد في حسرة على تمتعها بذلك وخلو ممالك الإسلام منه ". فتحدث عن علوم الطبيعة والأمراض وعلاجها، وعن تقدم العلوم كل يوم في باريس، وتتبع المكتبات والكليات والمدارس وما إليها...

– وغاص رفاعة بانبهار وعجب في **المظاهر الاجتماعية** للفرنسيين: الفضول والتطلع وحب التغيير والالتزام بالواجبات والصدق والإسراف في الإنفاق على اللهو والمتع، ودرس لغتهم ومحاسنها وقواعدها ودوائر المعارف والموسوعات وراح يتتبع المآكل والمطاعم والمتنزهات والمسارح والموسيقى والباليه والرقص...مشدوها بنظامهم وآدابهم.

– ركز على **التنظيم السياسي والإداري** لفرنسا، بدءا من دواوين الملك والحكومة والوزارات والهيئات النيابية، وترجم الدستور معجبا بدوره في ضمان العدل، ولذا " انقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلدانهم، وكثرت معارفهم، وتراكم غناهم، وارتاحت قلوبهم، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما أبدا، والعدل أساس العمران.. وما

يسمونه الحرية ويرغبون فيه، هو عين ما نطلق عليه عندنا العدل والإنصاف، وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوي في الأحكام والقوانين بحيث لا يجورُ الحاكم على إنسان بل القوانين هي المحكّمة والمعتبرة ".

2 – ويبرز لون آخر من ألوان الاتصال بالغرب أكثر فعالية وتنظيما، وهو **البعثات العلمية**. أرسل محمد علي (السبّاق إلى هذا المضمار) 11 بعثة إلى سنة 1847: بعثة الفنون العسكرية إلى إيطاليا(1813)، والميكانيك إلى إنجلترا (1818) وعلوم مختلفة إلى فرنسا (1826) وإليها لدراسة الطب (1832). وقد ضمت رحلة سنة (1826) التي كان فيها رفاعة (44) طالبا، في التخصصات الإدارية المدنية والعسكرية والسياسة والكيميا والطب.. والترجمة.. وتوسّعت البعثات في عهد الخديوي إسماعيل(1830–1895) فبلغت 120 بعثة. هذه البعثات عامل هام من عوامل الانفتاح والتطور ونقل العلوم، وقد أورد رفاعة في رحلته أن محمد علي كان يتابعها شخصيا ويرسل إليهم بالرسائل يحثهم فيها على طلب العلم والصنائع..

3– لقد تولّدت **الترجمة** عن هذه الرحلات والبعثات، و" **كلّ عصر نهضة يبدأ بالترجمة** " (منير البعلبكي)، ولا نقصد ترجمة الكتب الدينية (المسيحية) التي ظهرت في الشام مطلع القرن 19 (كترجمات مكاريوس، أو جرمانوس فرحات)، بل نقل العلوم والأفكار الحديثة إلى العربية في إطار حركة تنويرية وتجديدية عامة، انطلقت وفق استراتيجية محددة، وهو ما توفر في مشروع محمد علي لتحديث الدولة، فكان في البعثة طلبة للاختصاص في الترجمة، وأسّس مدرسة للألسن والترجمة (1835) يديرها رفاعة الطهطاوي، ثم قلما للترجمة (1841). وقد عرفت المدرسة نشاطا كبيرا بعد 1867 بوفود الشاميين إلى مصر، فتمّ نقل كتب كثيرة في العلوم الطبيعية والحربية والرياضيات.. وهي حركة حوّلت الأدب والحركة النقدية في أوائل القرن 20 وطواله.

ج – نمو الاتصال:

الاتصال هنا مصطلح شامل واسع الدلالة على مختلف المظاهر والوسائل والوسائط التي تعيد الالتحام بين العناصر التي تمزقت وابتعدت عن بعضها بسبب الانقطاع الطويل.

1– ومن الواضح أن الريف، أو **المدينة** الميتة المغمورة شكّلت الصورة الأساسية للتجمعات العربية طوال عصور الانحطاط، لكن الظروف الصعبة؛ الصحية والاقتصادية والاضطهاد الذي أنزله الاستعمار على الضواحي، دفع إلى هجرة إلى المدن، ومن ثم فإن تواصل الأفراد والجماعات الذي انقطع بسبب التقوقع والشتات، حل محله تقارب وتكتل، ولابد أن يسر **المواصلات** النسبي بسبب أعمال الطرقات والسكك التي أنجزها الاستعمار بدماء المحليين لأغراضه القمعية والتوسعية مهمّ.

2– **الطباعة** أهم حدث في مطلع النهضة، وأهم وسيلة ضمنت الاتصال وقوّته، وأمّنت انتشار الأفكار والأخبار والعلوم. تأثير المطابع الأولى باهت (دير قزحيا بلبنان 1601– ..مطبعة نابليون خلال الحملة 1798) لكن المطبعة الأهلية (بولاق) [أسسها محمد علي(1821)] أسهمت بشكل واسع وتاريخي في طبع الكتب العلمية والأدبية والدينية أكثر من 90 سنة. ثم كانت مطابع (المطبعة الأهلية القبطية 1860– وادي النيل 1866– المطبعة الأمريكية بلبنان 1834– وغيرها ...)

لقد كونت المطابع حركة علمية وأدبية واسعة، إذ بنشرها لمختلف الأعمال ساهمت في إحياء التراث العربي، وأوصلت الكتاب الحديث والمترجم والمحقق إلى آلاف المثقفين والطلبة، فهي من أهم العوامل في بعث النهضة وتجسيدها.

3- وتعدّ **الصحافة** – كعامل أساسي في البعث – ثمرة من ثمار المطبعة (بل ومن نتائج الحملة الفرنسية؛ لأن نابليون–كما سبق– أنشأ ثلاث جرائد)، ويبدو أن عامل الرحلات كان أكثر فعالية في ظهورها. و(**الوقائع المصرية**) هي أول صحيفة عربية، أصدرها محمد علي (1828) بالتركية ثم مزدوجة اللغة ثم بالعربية فقط، وظلت تصدر إلى أوائل القرن العشرين. ومن محرريها: حسن العطار– أحمد فارس الشدياق– محمد عبده.. وغيرهم من الأعلام. وتليها جريدة(**المبشر**) التي أصدرها الفرنسيون في الجزائر (1847) بالعربية والفرنسية، وهي صحيفة رسمية تصدر مرتين في الشهر إلى أوائل القرن 20.

ثم كثرت الصحف والمجلات الرسمية وغير الرسمية: (وادي النيل 1866–نزهة الأفكار1869وهي للمويلحي – روضة المدارس1870وحررها أعلام بارزون)، وفي الشام نلقى: (مرآة الأحوال بالآستانة 1855 – حديقة الأخبار 1858) . كما ظهرت (الرائد التونسي 1861) واستمرت إلى أوائل القرن 20، وفي بغداد: (الزوراء لمدحت باشا 1868) وأصدر السوريون صحفا بمصر مثل: (الكوكب الشرقي1873– والأهرام لسليم وبشارة تقلا1875 والتي ما تزال تصدر بمصر).

ولكي ندرك تأثير الصحافة وأهميتها في النهضة، ينبغي أن نتذكر الأسماء التي كانت تحررها آنذاك، أمثال : عبد الله النديم– وجمال الدين الأفغاني– والبستاني– ومحمد عبده – والكواكبي.. فقد " أيقظت الصحافة الأذهان، وحملت إلى قرائها لواء الدعوات السياسية والفكرية المختلفة :التجزئة والوحدة الوطنية والإقليمية،الرابطة العثمانية والجامعة الإسلامية والقومية العربية...". يقول إبراهيم أبو اليقظان (وهو من الحركة الوطنية الجزائرية):

إن الصحافة للشعوب حياة والشعب من غير اللسان موات
فهي اللسان المِفْصَح الذّلِق الذي ببيانه تُتدارَك الغايات
فيها إلى الأمم الضعيفة ترفع الرغبات منه ، وتبلغ الأصوات
الشعب طفل وهي والده يرى لحياته ما لا تراه رعاة

فالصحافة عندهم أداة تثقيف وتهذيب، ووسيلة ثورية ضد الاستعمار والظلم والفساد.

4- سندرج **المكتبات** بوصفها وسيلة اتصال؛ لأن الذخائر من المكتبة العربية تعرضت للتدمير والسرقة منذ إغراق مكتبات بغداد (المغول) إلى إحراق مكتبة جامعة الجزائر. ومن ثم انقطع الإنسان العربي عن الكتاب، وبقيت مكتبات في بعض العواصم ومبادرات فردية أيضا. فعودة المكتبات تترجم سلوكا جديدا، يقوي التواصل بين الماضي والحاضر، وبين المواطنين أنفسهم. وكانت المكتبات الكثيرة في الآستانة تضم – إلى سنة 1914– نحو 200 ألف كتاب، وتأسست مكتبة دار الكتب المصرية عام 1870 وضمت 70 ألف مجلد، والأزهر(1879) أكثر من 63 ألف كتاب، وفي المساجد ودار الآثار نحو31 ألف مجلد، وفي مكتبة بلدية الإسكندرية(1892) نحو 16 ألف مجلد، وبعض المكتبات الخاصة ضمت كنوزا (أحمد زكي باشا 18 ألف مجلد)، وفي دمشق بالمكتبة الظاهرية نحو 4000 مجلد، والمكتبة الشرقية لليسوعيين نحو 40 ألف مجلد وفي الكلية الأمريكية 17 ألف مجلد،

وضمت المكتبة الأهلية في الجزائر(1835) نحو 40 ألف مجلد، ومكتبة تونس (1906)، والرباط بالمغرب (1922)...

5- كان **التعليم** قبل النهضة مقصورا على العلوم التقليدية بالأساليب العتيقة، وفضله - رغم قتله للذكاء وروح الإبداع- في حفاظه على الشخصية الوطنية (أبعاد الهوية) وإشاعة القراءة والكتابة في أغلب الأوساط، لكنه تعليم غير مُجْد، إلا أنه في بداية النهضة وبعد تطويره أدى دورا هاما في التثقيف والتوعية والتكوين، فالمدرسة الجديدة التي تكفلت بها الدولة (من منظور استراتيجي تحديثي) أو الأهالي (كمقاومة وتجديد)، ضمنت الاتصال بين طبقات الشعب وتوحيدهم على رؤية تنويرية ومشروع نهضوي، وربطتهم بأحدث العلوم والاكتشافات، بلغت المدارس في عهد محمد علي (1839) 16 مدرسة (طب-كيمياء-مشاة- بحرية- طب حيواني....)، وبعد 1882 بلغت 5370 مدرسة ابتدائية و27 ثانوية إضافة إلى الأزهر والكتاتيب، وتُعد سنة 1822 بداية لتأسيس الجامعات، إذ تأسست الجامعة الأمريكية، وفي 1875 الجامعة اليسوعية في بيروت، وكلية صادقي في تونس سنة 1880، وفي 1908الجامعة المصرية، وهكذا سوريا 1924...

د - التكتل والنقاش (التفاعل):

مع الاقتراب من نهايات القرن 19 كان الوعي قد بدأ يجد طريقه إلى العقول، وثمار تلك الإصلاحات تظهر. وبسبب الصحافة (لاحظْ ارتباط التكتل غالبا بصحيفة ما) ونمو الاتصال، لاحت بوادر التكتل والتجمع في **صورة جمعيات علمية ونواد**، ففي مصر وحدها بلغت في أواخر القرن 19 نحو 160 جمعية (علمية- خيرية - للتعاون- للأيتام..). هي مساحات للتكوين والتثقيف ومنابر للتحريض والتوعية، مما أدى لتوقيف الكثير منها من طرف الأتراك أو الاستعمار البريطاني والفرنسي.

تأسست جمعية زهرة الآداب(1873) لسليمان البستاني وإبراهيم اليازجي.. ثم توقفت، وصودرت جمعية المقاصد الخيرية(بيروت 1880) لترقية الشباب المسلم، وفي دمشق (الجمعية الخيرية 1878، والتاريخية 1875، والطبية 1887..)، وفي مصر(مجلس المعارف المصري 1859، والجمعية الجغرافية 1875، وجمعية مصر الفتاة لجمال الدين الأفغاني والنديم، وهي سياسية سرية..) وجمعية المعارف 1868، والمجمع اللغوي 1892، وجمعية العروة الوثقى 1891 وغيرها..

أكثر **الجمعيات كانت تخفي أنشطة سياسية رغم تباينها وتناقضها أحيانا**، ولذا قمعت في الغالب. فلفكرة الجامعة الإسلامية أسس جمال الدين الأفغاني (أم القرى)1857، ثم في باريس مع محمد عبده (جمعية العروة الوثقى). وللتيار العثماني تأسست جمعية الاتحاد والترقي 1908، وفي سبيل الطائفية، نجد مثلا جمعية الإصلاح القبطية 1908. ومثّل التيار الوطني في النهاية أول حزب سياسي (الحزب الوطني 1879) تزعمه مصطفى كامل وكان وراءه جمال الدين الأفغاني. كما كان للتيار القومي عدة جمعيات، كجمعية بيروت السرية 1875 (نمر فارس- صرّوف..)، وحلقة الشيخ طاهر الجزائري وضمت جمال الدين القاسمي وكرد علي وبعض الضباط، وجمعية النهضة العربية 1906 لمحب الدين الخطيب، والإخاء العربي العثماني 1908. ونلحظ في هذا السياق تقليدا جديد يتمثل في النوادي الأدبية، ومن أشهرها ندوة توفيق البكري في بيته بين (1892-1912) حضرها علي يوسف، نمر فارس، الشنقيطي، المويلحي.. وندوة أحمد شوقي في بيته، يحضرها البشري وهيكل وحافظ إبراهيم وفكري أباظة... وندوة محمد بهجت البيطار بالشام وحضرها شكيب أرسلان والبشير الإبراهيمي.. وندوة أحمد زكي

في بيته المفتوح لكل رواد العالم الإسلامي بين 1922–1934.. كما تبرز مساهمة ندوة مي زيادة منذ 1913 كل ثلاثاء يحضرها: لطفي السيد، إسماعيل صبري، شوقي، حافظ، ولي الدين يكن، أنطون الجميل رئيس تحرير الأهرام، العقاد، الرافعي...

وقد قمع الاستعمار الفرنسي في الجزائر أكثر الجمعيات كالجمعية الدينية للأمير خالد1925، وحزب نجم شمال إفريقيا 1926 وشتت المؤسسة الخيرية بالجزائر وقد استمرت قليلا بعد 1830. وقصة الجزائر مع الجمعيات مؤلمة ومثيرة، فقد كان المثقفون يدعون إلى تأسيس الجمعيات والنوادي حتى الرياضية ويشجعون عليها، وكان الاستعمار يحلّها ويقمعها، ولذا كثرت خاصة في أوائل القرن 20 مع الحركة الوطنية، فهي التي احتضنتها ودعمتها ونشرت فكرها التحريري. ومن أوائل النوادي (نادي صالح باي) بقسنطينة أسسه المولود بن موهوب والمجاوي والحفناوي.. ثم نادي الترقي بالعاصمة الذي يعد شرارة قوية للحركة الوطنية والأدبية ، وكان بالبليدة (نادي النهضة 1932، ونادي التقدم 1935)، وفي سكيكدة نادي العمل1936 وأسسه ابن باديس. وفي تلمسان النادي الإسلامي، وفي سطيف نادي الإرشاد1936 رأسه فرحات عباس، وغيرها ..